النخبة المثقفة العراقية وإشكالية التأثير في الوسط الاجتماعي

الدكتور محمود شمال حسن*
أستاذ علم النفس الاجتماعي ــ جامعة المستنصرية

* باحث من العراق

المقدمة:

لقد أثبتت الوقائع الميدانية، أن النخبة المثقفة العراقية لم يكن لها تأثير يذكر في الوسط الاجتماعي؛ ولأنها كذلك، فقد أصبحت عاجزة عن إحداث تغييرات في اتجاهات الأفراد ومعتقداتهم، وأن ثمة مؤشرات تثبت صحة ذلك.

1. إن المجتمع العراقي، لما يزل بعد، يتأثر بخطاب المرجعيات التقليدية والتي نعني بها حصراً: المرجعيات العشائرية والإثنية. إذ أصبح الخطاب الصادر عن هذه المرجعيات أكثر فعالية في تشكيل اتجاهات الأفراد بدرجة تفوق خطاب النخبة المثقفة على اختلاف تصنيفاتها.

2. تشير الوقائع الميدانية، أن النخبة المثقفة، بقيت لزمن طويل تردد عبارات ومقولات أُنتجت في ثقافات أخرى، دون أن تتمكن من توطينها، أو تكييفها بطريقة تنسجم مع الخصوصية الثقافية للمجتمع، وهو الأمر الذي دفع الكثير من الناس إلى نعت أفرادها بنعوت سلبية، مفادها: أنهم يقولون الكثير من الكلام دون أن يفعلوا شيئاً، وهذا أدى بطبيعة الحال، إلى النفور منها.

3. ومن المؤشرات الدالة على انخفاض مستوى تأثير النخبة المثقفة في الوسط الاجتماعي، شيوع ظاهرة الأفكار اللاعقلانية، سواء لدى الفئات الاجتماعية التي تتمتع بنصيب وافر من الثقافة، أم تلك التي تتمتع بنصيب قليل منها. وهذا يشير صراحة، أن النخبة المثقفة لا تتمتع

بالتأثير المطلوب الذي يمكنها من تشكيل اتجاهات الأفراد بطريقة تتناسب وخطاب الحداثة. لذا نقول: إنَّ خطاب النخبة المثقفة، بقي في حدود النخبوية، ولم تتمكن من مغادرته، وكأنها أصبحت تخاطب نفسها، ومن يخاطب نفسه، لا يتمكن من التأثير في غيره.

4. ومما يجعلُ -النخبةَ المثقفةَ، فاقدةَ التأثير في الوسط الاجتماعي- غيابُ برامجها التنويرية التي أدّت بالمحصلة النهائية إلى انخفاض مستوى وعي الناس تجاه القضايا المصيرية التي تشغل اهتمامهم، وتبصيرهم من ثم بضرورة اتخاذ مواقف معينة إزاءها.

أولاً: مفهوم النخبة المثقفة

إن تحديد مصطلح النخبة المثقفة، يقتضي منا أولاً، وقبل كل شيء، تحديد معنى النخبة، ثم بعد ذلك، نحدّد معنى النخبة المثقفة.

من وجهة نظر قاموس علم الاجتماع، أن النخبة Elite تعني مجموعة من الأفراد تتمتع بقوّتها في التأثير في المجتمع[1]. ومعنى ذلك، أن النخبة هي فئة تشتمل على عدد قليل من الأفراد، وهذه الفئة تتمتع بقدرة التأثير في الوسط الاجتماعي الذي تعيش في كنفه. وبذلك، فان النخبة تحدد على أساس عاملين اثنين، هما: عامل العدد وعامل قوة التأثير في الوسط الاجتماعي. على أن هذين العاملين، يفقدان أثرهما في تحديد النخبة، ما لم يتوفر عدد من الخصائص، التي تجعل نخبة الأفراد أكثر فاعلية وتأثيراً في الوسط الاجتماعي، ولعلَّ من ابرز هذه الخصائص: القدرة العقلية العالية في مجال معين، كأن يكون نظم الشعر أو كتابة الرواية أو القصة، أو في مجال النحت أو الرسم أو الإبداع في مجال العلوم الإنسانية أو العلوم الصرفة وغير ذلك من المجالات. ومن الخصائص التي تتمتع بها النخبة: المكانة الاجتماعية المرموقة، تلك المكانة التي تساعدها على إحداث التحولات الاجتماعية المطلوبة في المجتمع[2].

(1) دينكن ميشيل. معجم علم الاجتماع، ترجمة احسان محمد الحسن. (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1980)، ص117.

(2) المصدر نفسه، ص120.

(3) محمد بن صنيتان. النخب السعودية: دراسة في التحولات والاخفاقات. (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2004)، ص123-124.

أما المثقف أو المثقفون، فهناك تعريفات متعددة، تشير كلها إلى أنهم مجموعة من الأفراد الذين يعملون في ميدان الفكر والثقافة. ولقد نقل أحد الباحثين[3]، مجموعة تعريفات للمثقفين، نوردها على النحو الآتي:

المثقفون: هم مجموعة من الأشخاص الذين تُمكّنهم قدراتهم ومواهبهم الخاصة من النفاذ الى منجزات ذات قيمة ثقافية.

- المثقفون: هم مجموعة من الأشخاص الذين تُمكّنهم

قدراتهم ومواهبهم الخاصة من النفاذ الى منجزات ذات قيمة ثقافية.

- المثقفون: هم اولئك الأشخاص الذين يمتلكون المعرفة، وعلى اساس هذه المعرفة الموضوعية وتأملاتهم الذاتية يصوغون أحكامهم على الواقع دون ان يستخدموا هذه الأحكام مباشرة، او بالضرورة من خبراتهم الحسية.
- المثقفون: هم المتخصصون في أمور الثقافة ويضعون حساباتها فوق الحسابات الاجتماعية اليومية المعتادة.

من ذلك، يتّضحُ، ان المثقفين، هم فئة -من الأفراد- تتمتع بقدرات عقلية تؤهلها لاحتراف العمل الفكري او الثقافي.

وتأسيساً على ما سبق، فان النخبة المثقفة، تعني تلك الفئة القليلة من الافراد التي تحترف العمل الفكري او الثقافي، واحتراف هذا النوع من العمل، هو الذي يمنحها قدرة التأثير في مجريات الأحداث. على أن هذه الفئة، تتميّز عن غيرها من الفئات الاجتماعية بخاصيتين :

الأولى: انها تتمتع بوعي اجتماعي يُمكّنها من معالجة مشكلات المجتمع بطريقة منطقية وعقلانية، وان الخطاب الثقافي او العلمي لهذه الفئة هو الذي يكون الكلمة الفصل في معالجة تلك المشكلات.

الثانية: ان النخبة المثقفة، تؤدي دوراً اجتماعياً، وهذا الدور مستمد من الكفاءة الفكرية او الثقافية التي تتمتع بها[4].

نخلص الى القول: ان النخبة المثقفة، هي تلك الفئة القليلة من الأفراد التي تحترف العمل الفكري او الثقافي، وهذا الاحتراف يمنحها قدرة التأثير في مجريات الأحداث ؛ ولأنها كذلك، فهي تتمتع بقدر كبير من الوعي الاجتماعي، وانها تؤدي دوراً اجتماعياً بفعل الكفاءة الفكرية او الثقافية التي تتمتع بها.

(4) محمد الدقس. الانتلجنسيا العربية: الواقع والطموح – ملاحظات اولية. في: سعد الدين ابراهيم (محرر). الانتلجنسيا العربية: المثقفون والسلطة. (عمان: منتدى الفكر العربي، 1980)، ص142.

ثانياً: الأنواع الدالة على النخبة المثقفة العراقية

لا بدَّ من التسليم ابتداءاً، ان النخبة المثقفة العراقية، لم تكن فئة اجتماعية واحدة، وانما هي فئات متعددة، وهذا يعني، ان النخبة المثقفة العراقية غير متجانسة، والدليل على ذلك، انها تشتمل على فئات مهنية وتربوية وسياسية، الى جانب الفئة العاملة في ميدان الصحافة والأدب. وإذا نحن حاولنا حصر

الفئات التي تتألف منها النخبة المثقفة، نجد انها تتوزع على الفئات الآتية :

1. فئة العاملين في الحقل التربوي كأساتذة الجامعات والمعلمين والمدرسين.
2. فئة العاملين في مراكز البحث العلمي.
3. فئة العاملين في الحقل الطبي.
4. فئة العاملين في الحقول المهنية الراقية كالمهندسين والمحامين.
5. فئة الكتاب والأدباء والصحفيين.
6. فئة العاملين في الحقل السياسي.

من ذلك، يتبين، ان النخبة المثقفة العراقية، لم تكن فئة واحدة، وانما هي فئات متعددة، وهذا التعدد في الفئات، لا يُعدُّ تصنيفاً معرفياً، وانما يعدُّ تصنيفاً مهنياً لحقيقة النخبة المثقفة. والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف نصنف معرفياً النخبة المثقفة العراقية ؟

وللإجابة عن هذا السؤال، نجد ان الاستعانة بالتوجهات القيمية السائدة في عموم المجتمعات البشرية، يساعدنا في تحديد التصنيف المعرفي للنخبة المثقفة العراقية التي نحن بصددها.

إحدى وجهات النظر التي يحيلنا اليها سويف 1985،[5] ان ثمة توجهات قيمية تكاد تشيع في كل مجتمع بشري، وجهة النظر هذه ترى ان الثقافة السائدة، تؤثر في شخصية الأفراد من خلال محورين اثنين.

(5) مصطفى سويف. الحضارة والشخصية. المجلة الاجتماعية القومية.العدد 2 (1985)، ص24–25.

المحور الاول: يمتدُّ من الانجاز الى الفشل.

المحور الثاني: يمتدُّ من التقبل الى الرفض.

إذا نحن أمعنا النظر في وجهة النظر هذه، نجد، أنها تشتمل على أربعة أنواع من التوجهات القيمية[6] :

(6) المصدر نفسه، ص25.

النوع الاول: انجاز – تقبل.

النوع الثاني: انجاز – رفض.

النوع الثالث: فشل – تقبل.

النوع الرابع: فشل – رفض 8, وكون الفرد متقبلاً للثقافة التي يعيش بين ظهرانيها، وإذن، فإن الأفراد من هذا النوع هم منجزون ومتقبلون للظروف السائدة في المجتمع.

والنوع الثاني، يجمع بين قيم الإنجاز وكون الفرد رافضاً للثقافة السائدة، وهذا يعني، ان الأفراد من هذا النوع، هم منجزون، بيد أنهم رافضون للظروف السائدة في المجتمع.

والنوع الثالث، يجمع بين الفشل في الانجاز وتقبل الفرد للثقافة السائدة، وهذا معناه، ان الافراد من هذا النوع، هم فاشلون من حيث الانجاز او ان توجهاتهم تخلو من الانجاز. بيد انهم متقبلون للظروف السائدة في المجتمع.

والنوع الرابع، يجمع بين الفشل في الانجاز ورفض لكل المعايير السائدة في الثقافة، وهو يعني، ان الأفراد من هذا النوع، هم فاشلون من حيث الإنجاز وهم رافضون للظروف السائدة في المجتمع.

عوداً على بدء، أيُّ نوعٍ من هذه التوجهات القيمية يساعدنا على تصنيف النخبة المثقفة العراقية من الناحية المعرفية ؟

إذا نحن عُدّنا الى الأنواع الأربعة للتوجهات القيمية، نجد ان النوع الاول والنوع الثاني تحديداً يساهمان في تنمية الإنجاز لدى الأفراد، ومعنى ذلك، ان التوجهات القيمية لهذين النوعين، يدعوان الى مناصرة المجتمع، بالرغم من أنهما يختلفان في تقبّل الثقافة السائدة ولكنَّهما يجتمعان في قيم الإنجاز. ومن الطبيعي، ان يخلو هذان النوعان من الفشل في الإنجاز، وعلى خلاف ذلك، ان النوع الثالث والرابع، يوحّدُهما الفشلُ في الإنجاز ويفرّقُهما تقبُّلُ الثقافة السائدة.

من ذلك، يُمكّنُنا ان نصنف النخبة المثقفة العراقية على النحو الآتي :

1. نخبة مثقفة تتمتع بانتاج خطاب معرفي او ثقافي ومتقبلة للثقافة السائدة.
2. نخبة مثقفة تتمتع بانتاج خطاب معرفي او ثقافي ولكنّها رافضة للثقافة السائدة.
3. نخبة مثقفة فشلت في انتاج الخطاب المعرفي او الثقافي، وهي متقبلة للثقافة السائدة.
4. نخبة مثقفة فشلت في انتاج الخطاب المعرفي او الثقافي، وكذلك فشلت في تقبل الثقافة السائدة.

صنف النخبة المثقفة العراقية الى نوعين، فهي: أمَّا ان تكون منتجة لخطاب معرفي او ثقافي، وأمَّا ان تكون غير منتجة .

إن مما يجب الإشارةُ اليه في هذا الصدد، التصنيف الوارد ذكره، صنف النخبة المثقفة العراقية الى نوعين، فهي: أمَّا ان

تكون منتجة لخطاب معرفي او ثقافي، وأمَّا ان تكون غير منتجة. وإذا كانت منتجة، فهي أمَّا ان تكون متقبلة للثقافة السائدة، وأمَّا ان تكون رافضة لها. ولعلَّ الامر نفسه، ينطبق على النخبة المثقفة غير المنتجة، فهي والحال هذه، اما ان تكون متقبلة للثقافة السائدة، واما ان تكون رافضة لها، وذلك ما نريد ان نصل اليه من التصنيف.

ثالثاً: الأسباب التي جعلت النخبة المثقفة العراقية غير مؤثرة في الوسط الاجتماعي

من المفيد الإشارةُ هنا ان النخبة المثقفة العراقية، لم يكن لها تأثير يذكر ؛ ولأنها كذلك، فقد أصبحت مرجعية فاقدة للتأثير في الوسط الاجتماعي، وهو الأمر الذي جعلها غير فاعلة في إحداث التغييرات الاجتماعية المطلوبة. وان ثمة أسباباً أدّت الى إضعاف دورها في المجتمع، ومن بين هذه الأسباب :

1. ان النخبة المثقفة في المجتمع العراقي ؛ أخذت تعاني من أوضاع معيشية مهينة للكرامة الإنسانية، ولقد تمثّلت هذه الأوضاع بأشكال مختلفة.

أ - لقد تعرض القسم الأكبر من أفراد النخبة المثقفة في المجتمع العراقي الى الفقر والعوز اثناء الضائقة الاقتصادية ؛ بسبب ان الأجور التي يتقاضاها أفراد هذه الفئة، ظلت ثابتة دون مراعاة التغييرات الاقتصادية. في المقابل، ان العملة النقدية تعرضت الى تضخم كبير جداً، بلغت نسبته استناداً الى البيانات الاقتصادية (2000%)[7]. وقد أفضى ذلك الى ارتفاع الأسعار بشكل لا يصدق، وهو الأمر الذي أشاع الفقر بين صفوف هذه الفئة.

ب - ومما زاد من فقر هذه الفئة، ان النظام السابق، اخذ يتخلى عن دعم السلع والمواد الاساسية، مكتفياً بحصة تموينية، لم توفر للفرد الواحد يومياً، سوى اقل من (50%) من السعرات الحرارية في مرحلة ما قبل مذكرة التفاهم. وحتى في المراحل المتقدمة من المذكرة، لم تصل هذه السعرات الى الحد الأدنى الذي يوصي به برنامج الأغذية العالمي ؛ ولعلَّ ذلك كان سبباً اضافياً لزيادة عدد الفقراء والمحرومين في صفوف هذه الفئة.

ج - إن إحجام الكثير من افراد النخبة المثقفة عن المساهمة في

(7) فالح عبد الجبار. الدولة والمجتمع والتحول الديمقراطي في العراق. (القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات الانمائية، 1995)، ص168.

نشاطات النظام السابق، من قبيل: المشاركة في مهرجانات التقديس التي يعلن عنها بين الآونة والاخرى، او تدبيج قصائد المديح او رسم اللوحات الفنية التي تعبر عن عبقرية رأس النظام، ونحو ذلك من النشاطات.

إن غياب الساهمة في هذه النشاطات، افضى الحال بهؤلاء الى المحافظة على دخولهم الشهرية دون ان يطرأ عليها زيادة. وقد واجه هؤلاء الأفراد، إزاء هذا الإحجام، صعوبات معيشية ؛ وبهدف ايجاد الحلول المناسبة لهذه الصعوبات، لجأ بعضهم الى تقديم استقالته والهجرة خارج الوطن وآخرون توزعوا بين المتاجرة ببعض المواد الاساسية او شراء سيارة اجرة بعد بيع الممتلكات الأسرية او الدخول بصفة شريك في مشروع تجاري او المضاربة في العقارات والأراضي. ولعلَّ ذلك كله، يستهدف تحسين سبل المعيشة، فضلاً عن إشباع بعض الحاجات الاساسية.

من ذلك يتّضحُ، ان الكثير من أفراد النخبة المثقفة في المجتمع، قد تعرض الى الفقر والحرمان والبؤس، وتلك اشارة صريحة، الى ان هذه الفئة، قد تعرضت الى الانهيار، بعد ان كان أفرادها يعيشون في حالة يسر.

2. ان المتتبع للحياة السياسية في المجتمع العراقي، ولاسيما في عهد النظام السابق، يجد انها تحفل بالتسلط والقهر، ولعلَّ ذلك افضى الى إضعاف دور النخبة المثقفة في المجتمع بشكل ملحوظ. والحقيقة، ان النخبة المثقفة، لا تكون مؤثرة في الوسط الاجتماعي، الا بعد تهيئة المناخ السياسي الذي يوفّر لها حرية التعبير عن آرائها دون ملاحقة او مساءلة. وغياب الحرية السياسية، افضى ولا ريب، الى إضعاف دورها في المجتمع، مما ترتب على ذلك، التزام الصمت حيال العديد من الموضوعات المثيرة ولسنوات طويلة، وهو الامر الذي جعل عامة الناس تنعتها بنعوت سلبية، ومنها على سبيل المثال: ((ان المثقفين يقولون الكثير من الكلام، دون ان يفعلوا شيئاً)) وانهم ((يعيشون في ابراج عاجية، لا يعرفون معاناة الناس))، وكثير من هذا القبيل. كذلك، فان القهر الحادث في الحياة السياسية، ادى الى منع افراد هذه النخبة من انشاء المراكز البحثية والجمعيات الثقافية والمنتديات الفكرية ؛ لان

ان المتتبع للحياة السياسية في المجتمع العراقي، ولاسيما في عهد النظام السابق، يجد انها تحفل بالتسلط والقهر، ولعلَّ ذلك افضى الى إضعاف دور النخبة المثقفة في المجتمع بشكل ملحوظ.

اتاحة المجال للجمعيات والمنتديات، سيؤدي الى تثقيف عامة الناس بحقوقها السياسية والاجتماعية والثقافية، وهنا تكمن خشية الحكومة من انشاء هذه الجمعيات، اذ ستؤدي الى مطالبة العامة من الناس بحقوقها. وان لم تجد المطالبة نفعاً، فقد تتخذ من الهياج الجمعي وسيلة للتعبير عن رفضها واحتجاجها.

تلك الأسباب، هي التي منعت النظام السابق من تخفيف القهر في المجتمع، مما انعكس بالمحصلة النهائية على النخبة المثقفة، اذ اصبحت غير قادرة على التأثير في الرأي العام.

3. ومن الأسباب التي ادت الى اضعاف دور النخبة المثقفة في المجتمع العراقي، سيطرة النظام السابق على قنوات الاتصال الجمعية. ولقد تمثلت هذه السيطرة، بفرض الرقابة الفكرية المشددة على الخطاب الثقافي او الفكري، سواء كان مطبوعاً على شكل كتاب ام مجلة ام صحيفة ام مرئياً عبر التلفزيون والسينما والمسرح ام مذاعاً عبر المذياع، اي ان النتاج الثقافي او الفكري لا يأخذ طريقه الى النشر او العرض، الا بعد عرضه على الرقيب الفكري، الذي يقرر بدوره صلاحيته. وتثبيتاً لصحة الرأي الذي ذهبنا اليه، يقول لطيف نصيف جاسم، وزير الثقافة والإعلام، في عهد النظام السابق، موجهاً كلامه الى الكُتّاب والصحفيين ما نصه: ((يجب ان تحسوا دائماً ان القيادة وان المسؤولين بمختلف التسلسلات يرصدون كل فعل))[8].ثم يوضّح عملية الرصد بقوله ((ما زال البعض يكتبون بطريقة الايماء والتعميم وطريقة الرموز، ربما البعض سوف يسأل ماذا تقصد بهذا الكلام؟ ليس سراً اننا نقرأ الصحف من البداية الى النهاية ونقرأ ما تكتبونه والبعض ما زال يكتب على الطريقة السريالية واقصد ان الكاتب لا يريد ان يلتزم بموقف واي شخص لايريد ان يلتزم بموقف، نضع على كتاباته علامة استفهام))[9].

اذا نحن اجرينا تحليلاً للتصريحات التي ادلى بها الوزير، نجد انها تشتمل على افكار من قبيل :

أ - ان المسؤول لا يعمل بطريقة مهنية، وانما يعمل بطريقة مخابراتية ؛ ولأنه يعمل بطريقة مخابراتية، يصبح من العسير على النخبة

(8) هادي المدرسي. شخصية الطاغوت: دراسة في نمط العلاقة بين الحاكم والمحكوم في ظل الاستبدأد، صدام نموذجاً. (قم: دار البقيع، 1417)، ص258.

(9) كلمة وزير الثقافة والاعلام عند افتتاح المقر الجديد لنقابة الصحفيين. صحيفة الثورة البغدادية، في 1 آيار، 1989، في: المدرسي، شخصية الطاغوت: دراسة في نمط العلاقة بين الحاكم والمحكوم في ظل الاستبدأد، صدام نموذجاً، ص258–259.

المثقفة، احداث تغيير في الجمهور المستهدف، باستعمال قنوات الاتصال الجمعية.

ب – ان طريقة ((الايماء والتعميم والرموز)) غدت اساليب شائعة في الكتابة لأغلب المثقفين العراقيين ؛ وذلك لتجنب الرقابة. لذا لجأ المثقفون الى التلميح في الكتابة بدلاً من التصريح، واستعمال الإشارة الغامضة بدلاً من الإشارة الواضحة ؛ وذلك لتثبيت وجهة نظر معينة او اتخاذ موقف معين من الأحداث الجارية في عالم السياسة او المجتمع. وهذا يدل دلالة قاطعة على صرامة الرقابة وقسوة السلطة تجاه المثقفين الذين يتبنون آراءاً مخالفة لتوجهاتها.

وما يهمنا هنا، ان سيطرة النظام السابق على قنوات الاتصال الجمعية، ادت الى حرمان النخبة المثقفة من الاتصال بالجمهور. ولما كانت النخبة المثقفة محرومة من استعمال قنوات الاتصال الجمعية، فمن الصعوبة بمكان التأثير في آراء الجمهور ومعتقداته. لذا، فان الامر يقتضي، ان تكون هناك حرية متاحة في استعمال القنوات الاتصالية بكل انواعها ؛ ليتسنى لهذه النخبة احداث سلسلة من التغييرات في آراء الجمهور ومعتقداته.

4. ان غياب المجتمع المدني بمؤسساته كافة، افضى إلى اضعاف النخبة المثقفة في المجتمع العراقي، ومن ثم انحسار دورها ؛ والسبب يرجع إلى ان النخبة المثقفة، اصبحت عرضة للملاحقة والمطاردة من جانب السلطة. وقد تحمل بعض افرادها مرارة الحرمان من الدخل الشهري، واخرون القي بهم في السجون والمعتقلات.لذا، اصبح لزاماً، تفعيل مؤسسات المجتمع المدني ؛ من اجل تمكين النخبة المثقفة من ترويج خطابها بين الجمهور.

5. ومن الأسباب التي ادت الى اضعاف فعالية النخبة المثقفة، انها تفتقر الى الاساليب التي يتم بموجبها مخاطبة الافراد، على اختلاف توجهاتهم الايديولوجية. وهنا ينبغي مخاطبتهم بطريقة لا تستثير لديهم شعوراً بالنفور وعدم الرضا. ويشير واقع الحال، ان النخبة المثقفة من ذوي الاتجاهات العلمانية، اخذت تخاطب الافراد بطريقة متحاملة واحياناً تهاجم معتقداتهم الدينية وتنعتها بالتخلف واللا عقلانية، وتزعم، انها تنطوي على خرافات، وانها غدت تعيق التطور في المجتمع.

ان سيطرة النظام السابق على قنوات الاتصال الجمعية، ادت الى حرمان النخبة المثقفة من الاتصال بالجمهور.

والحقيقة، ان خطاب من هذا النوع، يوجه الى افراد قضوا معظم حياتهم يؤدون الشعائر الدينية، تكون نتيجته الرفض ؛ لانه خطاب لا يتطابق مع معتقداتهم الدينية، مما يؤدي والحال هذه، الى صرف انتباههم الى خطاب آخر، يكون اكثر انسجاماً مع معتقداتهم هذه. ولعل الامر نفسه، ينطبق على النخبة المثقفة من ذوي الاتجاهات الاصولية الإسلامية، فهذه النخبة، أخذت هي الأخرى، تخاطب الأفراد بطريقة في غاية البساطة. اذ تفترض مسبقاً، ان هؤلاء الافراد يتمتعون بمستويات متقاربة من الالتزام الديني، وهو الامر الذي يؤدي الى استثارة نفور بعض الافراد، وربما ينتهي الحال بهم الى اطلاق عبارات السخرية والتهكم على اولئك الذين يروجون لهذا الخطاب.

6. يعدُّ غياب الأمن، من الأسباب التي ادت الى اضعاف فعالية النخبة المثقفة. اذ ظهرت بعد سقوط النظام، جماعات مجهولة الهوية، تنذر افراد هذه النخبة بالقتل، ان لم تلتزم الصمت إزاء ما يحدث من أوضاع، في حين ظهرت جماعات اخرى، تتولى عملية الخطف ؛ وذلك لإجبار أسرة المخطوف على دفع فدية مالية، ثم بعد ذلك، يطلب من المخطوف، مغادرة البلاد، وإلا فان الاغتيال سيكون مصيره[10]. والمهم في الأمر، ان تعرض أفراد هذه النخبة إلى الإرهاب، أفضى إلى إضعاف دورها في المجتمع.

وتشير البيانات، بالرغم من ندرتها، الى ان عمليات الاغتيال في تصاعد مستمر. فعلى صعيد الملاك التدريسي في الجامعات، تشير البيانات في هذا الصدد، ان اكثر من (250) استاذاً جامعياً قتلوا اثر العمليات الإرهابية[11]، وهم يتوزعون على حقول معرفية متنوعة وبألقاب علمية مختلفة. وعلى صعيد الأطباء، تفيد البيانات في هذا الصدد، ان (61) طبيباً قتلوا، في حين تعرض (30) منهم الى اصابات، ناهيك عن الإصابات التي تعرض لها الأفراد في المهن الصحية[12]. كذلك، تشير الوقائع الميدانية أن العاملين في الصحافة والإعلام، كانوا من الفئات المستهدفة بالإرهاب. ذّ تشير البيانات الصادرة عن مرصد الحريات الصحفية في العراق، ان (195) قتلوا في عمليات إرهابية، منهم (105) من الصحفيين والبقية الباقية من العاملين في ميدان الإعلام[13].وهناك

(10) محمود شمال حسن. النخبة المثقفة العراقية: ضغوط الفقر ومحنة الهجرة. جدل (بغداد)، السنة 1، العدد 2 (شباط، 2006)، ص43.

(11) استنزاف العقل العراقي لمصلحة من؟ صحيفة الصباح، العدد 771، 19 شباط، 2006.

(12) تصريح وكيل وزارة الصحة، صحيفة الصباح، العدد 767، 14 شباط، 2006.

(13) صحيفة الصباح، لعدد 1134، 9 حزيران، 2007.

اصابات بين صفوف الفئات الأخرى من النخبة المثقفة التي لا نمتلك معلومات كافية عنها، اذ تشير الوقائع الميدانية، الى تصاعد الإرهاب الموجّه نحوها. ولوِ استمرت العمليات الإرهابية الموجّهة نحو أفراد النخبة المثقفة بالوتائر المتصاعدة نفسها، فاننا نتوقع، ان نشهد إحجاماً عن الانتظام في الدوام. كما ان العمليات الإرهابية الموجّهة نحو أفراد هذه النخبة، ستفضي الى خفض واضح في مستوى الإنتاجية ؛ لأنها ستفضي الى تشكيل أجواء مضطربة، تنطوي على الخوف والقلق من المجهول، وهذا سيؤدي الى تعطيل العمليات العقلية العليا، وهو يعني صراحة، انخفاض مستوى انتاجية هذه النخبة، كماً ونوعاً. كذلك، فان العمليات الإرهابية، ستفضي بأفراد هذه النخبة الى البقاء في منازلهم او التواري عن الأنظار او الانتقال الى مكان آخر أكثر امناً، وهذا سيعرض أفراد هذه النخبة الى الإنهاك والإعياء، وربَّما ينتهي الأمر، الى الإصابة بأحد الاضطرابات السايكوسوماتية، وقد تتطور الإصابة الى نمط آخر، ربما يكون اكثر شدة، وبالمحصلة النهائية، قد تفضي هذه الإصابة الى إعاقة بعض أفراد هذه النخبة من اداء التزاماتهم العلمية او الثقافية بالشكل المطلوب.

رابعاً: الآثار النفسية والإجتماعية الناجمة عن فقدان النخبة المثقفة التأثير في الوسط الإجتماعي

لقد عانت النخبة المثقفة العراقية، مدة طويلة من الخيبات المؤلمة، جراء الأزمات السياسية والإقتصادية المتلاحقة، فضلاً عن القهر السياسي للحكومات المتعاقبة. ولعلَّ المهم هنا، أنَّ هذه الأزمات على كثرتها، أثَّرت تأثيراً سلبياً في النخبة المثقفة، ذلك ان حدوث ازمة ما، يعني، ان النخبة المثقفة، ينبغي لها أن تقدم فروض الطاعة والولاء للحكومة، وبصريح العبارة، ينبغي على النخبة المثقفة، ان تثبت بالأدلة القاطعة، أنها مؤيّدة لمساعي الحكومة. وعندما نقول، ينبغي على النخبة المثقفة، ان تقدم فروض الطاعة والولاء للحكومة، فاننا نعني بذلك، ان يكون للنخبة المثقفة المساهمة الواضحة في التعبئة الدعائية للحكومة، وذلك من خلال الإشادة بمنجزاتها ودعوة الآخرين إلى الالتزام بنهجها القويم!! ومقارعة أعدائها. ولعلّ الأهمَّ من ذلك، ان النخبة المثقفة، ينبغي ان تبذل جهوداً مكثفة لإقناع

أفراد المجتمع، بفكرة، ان الحكومة هي قدرهم ؛ ولأنها قدرهم، كان لا بدَّ من الالتفات حولها ومساندتها تجاه القوى الغاصبة، هكذا، كان يطلب من النخبة المثقفة في عهود الحكومات المتعاقبة. بيد ان هذه المطالب، لم تلقَ استجابة من جانب بعض أفراد هذه النخبة، وكان من الطبيعي، والحال هذه، ان ينجم عن الإحجام عن تلبية مطالب السلطة، جملة من المشكلات، منها: التعرض الى الاعتقال او التشريد او العيش في المنفى، الى جانب هذا وذاك، الملاحقة بتهمة الخيانة للوطن والحرمان من حقوق المواطنة والتعرض الى الطرد من الوظيفة، مما يؤدي الى الحرمان من الدخل الشهري، الذي يتمُّ بموجبه إشباع بعض الحاجات الشخصية والاجتماعية. وهذا يعني كلّه، الضغط على أفراد هذه النخبة ؛ بهدف إجبارهم على طاعة الحكومة في مساعيها التي تستهدف بالدرجة الأساس، السيطرة على المجتمع، وإسكات الأصوات المعارضة ؛ ليتسنى لها بعد ذلك، التصرف بموارد المجتمع، ومن ثم - وهو الأهمُّ - البقاء في السلطة مدة طويلة.

لقد عانت النخبة المثقفة العراقية، مدة طويلة من الخيبات المؤلمة، جراء الأزمات السياسية والإقتصادية المتلاحقة، فضلاً عن القهر السياسي للحكومات المتعاقبة.

نقول: إنَّ هذه الازمات بمجملها، شكّلت مناخاً اجتماعياً، أجبر النخبة المثقفة، الى التزام الصمت إزاء الأحداث الجارية في المجتمع ؛ إيثاراً للسلامة.كذلك، أُريد من إشاعة هذا المناخ، إشغالُ الأفراد بهموم المعيشة المتلاحقة، ومنهم أفراد النخبة المثقفة على وجه التحديد، اكثر من انشغالهم بالأحداث السياسية. وبالمحصلة النهائية، فإنَّ إشاعة هذا المناخ، مكَّن السلطةَ من تحقيق هدفها الرئيس، ألا وهو إجبار أفراد النخبة المثقفة على الرضا بالقهر والصمت إزاء الأوضاع الجارية، وتحمل المعاناة دون تذمر. ولقد ترتَّب على ذلك كله، جملة من الآثار النفسية والاجتماعية والتربوية، وفي هذا الصدد، نشير الى أهمِّها :

1- هجرة الكفاءات العلمية :

تشير الوقائع الميدانية، أن الأوضاع المعيشية الآخذة بالانحدار، أدَّت بنسبة كبيرة من الكفاءات العلمية الى ترك المؤسسات العلمية والجامعات والمعاهد والهجرة الى الخارج. وقد اتخذت هذه الهجرة مسارين اثنين: فأمَّا الاول، فهو مسار البلدان العربية، إذ هاجر بعض هذه الكفاءات الى دول الخليج

واليمن وليبيا والأردن وسوريا، وأمَّا الثاني، فهو مسار البلدان الأجنبية، وقد هاجر قسم من هذه الكفاءات الى بلدان أوربا واستراليا والولايات المتحدة وآسيا. ولقد شهدت هذه الهجرة زيادة لافتة للانتباه، وعندما نقول: إنَّ هجرة الكفاءات شهدت زيادة لافتة للانتباه، انما نعني بذلك، أن أعداد المهاجرين كانت كبيرة. فقد وصل الحال ببعض المؤسسات العلمية الى إفراغها من هذه الكفاءات، وهو الأمر الذي جعل النظام السابق، يتّخذُ إجراءات قسريَّة حيالَ هذه الكفاءات ؛ بهدف منعها من الهجرة. ولو طالعنا الإحصاءات عن أعداد الكفاءات المهاجرة، بالرغم من ندرتها في هذا الصدد، نجد، أن أعدادها كانت كبيرة، وهذا يؤشر حقيقة ان المجتمع العراقي، انضمَّ الى قائمة البلدان التي تعاني من ظاهرة (نزف الأدمغة) او (هجرة العقول). وتثبيتاً لصحة هذا الرأي، يشير أحد التقارير الصادرة في واشنطن، ان اساتذة الجامعة العراقيين، بلغ عددهم في الجامعات الأمريكية الرئيسة (11550) استاذاً جامعياً[14]. وفي لندن لوحدها، يوجد فيها خمسة آلاف طبيب عراقي، كما ورد في بيان مجلس الحكم، وفي كندا يوجد ما يقارب ثلاثة آلاف تقني عالي المستوى من أصل عراقي، الى جانب ذلك، هناك اكثر من (4) ملايين مهاجر عراقي ينتشرون في بقاع مختلفة من العالم، بينهم أعداد تُقدّر بعشرات الآلاف من الكفاءات العلمية التي هاجرت الى الخارج، نتيجة الفقر والبؤس والمعيشة المهينة للكرامة الانسانية.

(14) محمد رشيد الفيل. الهجرة وهجرة الكفاءات العلمية العربية والخبرات الفنية او النقل المعاكس للتكنولوجيا. (عمان: دار مجدلاوي، 2000)، ص81.

نقول "ان هذه الأعداد الكبيرة من الكفاءات التي هاجرت الى الخارج، كانت تتمتع بخصائص من قبيل: التميّز العلمي أو الثقافي والمهارة العالية والخبرة المتراكمة، فضلاً عن انتاجيتها العلمية العالية، وليس أدلّ من دليل على ذلك، سوى أعضاء هيأة التدريس في الجامعات وفي المعاهد العلمية الذين هاجروا الى الخارج، كانوا من حملة شهادة الدكتوراه، وبدرجات علمية تراوحت بين استاذ مساعد الى استاذ، والقليل منهم، كانوا يحملون درجة مدرس.

اما المتخرجون الجدد من حملة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه، فان نسبة كبيرة منهم، تفضل الهجرة على البقاء.

والحقيقة أن هذا التفضيل للهجرة ؛ يرجع الى عاملين اثنين: فأما العامل الاول، فهو اقتصادي بالدرجة الأولى، إذ اصبحت الأجور في الوظائف الرسمية غير مجزية ؛ ولأنها غير مجزية، فقد انتشر بين صفوف المتخرجين

الجدد، فكرة الهجرة للتخلص من المنغصات الموجودة في الداخل، مما ترتب على ذلك، العزوفُ عن التعيين. وأما العامل الثاني، فهو محاكاة او تقليد اولئك الزملاء الذين سبقوهم في الهجرة، فضلاً عن الأحاديث التي يسمعها هؤلاء الطلبة من أعضاء هيأة التدريس، تفيد بعدم احتمال الأوضاع المعيشية البائسة، وان الهجرة تعدُّ حلاً مناسباً ؛ للتخلص من تلك الأوضاع البالغة القسوة. ولقد كانت هذه الأحاديث التي ذاعت بين صفوف هذه الفئة المتخرجة حديثاً، بمثابة الإشارة لتقبُّل فكرة الهجرة، ومن ثم تهيئة مستلزماتها المطلوبة فيما بعد. ولقد توصلت، احدى الدراسات التي أُجريت على طلبة الدراسات الأولية في المراحل المنتهية وطلبة الدراسات العليا، الى الرأي الذي ذهبنا اليه، اذ أفادت هذه الدراسة، بوجود رغبة حقيقية لدى هؤلاء الطلبة في الهجرة الى الخارج[15] ؛ بقصد الإستقرار وتحقيق بعض أهدافهم الشخصية ومن ثم التخلص من المنغصات والإحباطات التي يتعرضون لها، لذا، أصبحت الهجرة الى الخارج شغلهم الشاغل.

(15) خالد حنتوش ساجت المحمداوي. الاتجاهات المستقبلية للطلاب نحو الهجرة خارج العراق: دراسة ميدانية في جامعة بغداد. (بغداد: جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، 1996)، ص90.

وما يخصُّ اولئك الذين لم يتمكنوا من الهجرة ؛ بسبب القيود المفروضة على السفر إبان النظام السابق، فقد أخذوا يعانون الفقر والحرمان، مما عرّض الكثير منهم الى الاغتراب عن المجتمع. اذ تشير إحدى الدراسات التي أُجريت على أعضاء هيأة التدريس في الجامعات العراقية، ان (70%) من هؤلاء، كانوا يعانون من الاغتراب[16]. وهذا يعني، ان نسبة كبيرة من أفراد هذه الفئة، مهيأة من الناحية النفسية للهجرة في حال توفر الفرصة المناسبة.

(16) خضير مهدي عمران الجبوري. الاغتراب عند تدريسيي الجامعات العراقية وعلاقته بجنس التدريسي وموقع الضبط والدخل الشهري ومنشأ الشهادة والمرتبة العلمية. (بغداد: جامعة بغداد، اطروحة دكتوراه غير منشورة، 1996)، ص91.

نقول: انه بسبب ضآلة الدخل وعدم كفايته لسد مقتضيات المعيشة اليومية، اضطر عدد كبير من أعضاء هيأة التدريس في الجامعات ومن الباحثين في المؤسسات العلمية، الى البحث عن عمل خارج اوقات الدوام الرسمي، وهو، الأمر الذي ادى الى التغيّب عن الدوام بضعَ ساعات او لأيام معيّنة من الأسبوع للايفاء بالتزاماتهم في عملهم الإضافي. ولقد ترتَّب على ذلك، ضعفُ المهارات التدريسية بالنسبة لأعضاء هيأة التدريس في الجامعات، وكذلك ضعف المهارات العلمية بالنسبة للباحثين في المؤسسات العلمية، نتيجة عدم الاكتراث بالعملية التدريسية والبحثية، ومن الطبيعي والحال هذه، ان تضعف مهاراتهم المرتبطة بعملهم.

وهنا نصل الى مسألة لا بدَّ من الاشارة اليها وهي، ان ضعف المهارات

المهنية لهذه الكفاءات، ادى الى تدني الانتاجية العلمية[17]. والمتتبع لانتاجية الكفاءات العراقية، يجد انها انتاجية تستهدف بالدرجة الاولى، الحصول على الترقية العلمية، ولا تستهدف ايجاد الحلول لبعض مشكلات الميدان، الا القليل منها، وهو الامر الذي افضى الى انجاز مجموعة من البحوث العلمية التي تفتقر الى المعالجة النقدية للظاهرة. كذلك، تفتقر الى الدقة في المعالجة، فضلاً عن التكرار،او تأليف بعض الكتب المقررة دراسياً، وهي الأخرى تفتقر الى المعالجة النقدية، وهناك رتابة في الطرح والسرد وغلبة التكرار عليها.

(17) محمود شمال حسن. الخطاب التربوي العربي واشكالية تشكيل السلوك. شؤون عربية، العدد 115(خريف،2003)، ص116.

نقول: انه بسبب المعيشة الآخذة بالانحدار والمهينة للكرامة، اتخذت هذه الفئة، عدداً من الأساليب لمواجهة التدهور الحاصل في المعيشة، ولعلَّ من أهمّ هذه الاساليب: ترك الوظيفة، بعد ان وجد بعضهم، عدم قدرته على الايفاء بالتزاماته العلمية والخلقية، اذ تركها غير مأسوف عليها. وفريق ثانٍ، فضل البقاء في الداخل، راضياً بقليله مغترباً عن محيط عمله.

وما يهمنا في هذه السطور، الفريق الثالث الذي ترك البلاد مهاجراً الى مكان آخر، وحقيقة الامر،ان هذه الهجرة نجم عنها جملة من المشكلات النفسية والاجتماعية والعلمية، وفي هذا السياق نشير الى اهمها :

أ – إفراغ المجتمع من قوى التغيير[18] الاجتماعي، ذلك ان المجتمع يعوّل كثيراً على هذه الكفاءات للمساهمة في تنميته، فما بالك في هجرته الى بلاد اخرى ؟، فان النتيجة المتوقعة، ان المجتمع سيعاني مزيداً من المشكلات المتعلقة بموارده البشرية الماهرة.

(18) نادر فرجاني. الهجرة الى النفط: ابعاد الهجرة للعمل في البلدان النفطية واثرها على التنمية في الوطن العربي، ط3.(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1984)، ص64.

ب –إن بقاء الكفاءات في بلاد المهجر، مدة طويلة، سيفضي ولا ريب، الى اضعاف الصلة بالمجتمع الاصلي، وعدم قدرتها على الاندماج في المجتمع في حال عودتها اليه[19] . اذ تفيد الملاحظات الميدانية، ان ثمة عدداً غير قليل من افراد هذه الكفاءات، عادوا الى العراق بعد سقوط النظام، بيد انهم رجعوا ثانية بعد مدة وجيزة ؛ وذلك لتعارض اساليب الحياة التي درجوا عليها في بلاد المهجر مع تلك الاساليب السائدة في المجتمع العراقي، فضلاً عن هذا وذاك، كان هؤلاء العائدون غير قادرين على التوافق مع المحيط الاجتماعي الجديد، وهو الامر الذي جعلهم يعانون الاغتراب، وان كانوا مع اسرهم ومعارفهم.

(19) محمود شمال حسن. قلق المستقبل لدى الشباب المتخرجين من الجامعات. المستقبل العربي، السنة 22، العدد 249(تشرين الثاني – نوفمبر،1999)، 85.

ج - ولعلَّ بقاء هذه الفئة مدة طويلة في المهجر، سيفضي الى مشكلات تتعلق باتقان الاطفال للغة الاصلية ؛ وذلك يعود الى ان الاطفال سيواجهون لغتين في آن واحد: اللغة الثانوية، وهي لغة البلاد المهاجر اليها، واللغة الاصلية، وهي عادة لغة الابوين. وبما ان اللغة الثانوية، ستكون هي اللغة الغالبة في عملية التفاهم مع افراد المجتمع الجديد، وفي عملية التعلم المؤسسي، فان اللغة الاصلية ستنال الشيء القليل من الاهتمام، ولا سيما ان هذا الاهتمام، سيقتصر على المفردات العامية، وهذا سيؤدي بطبيعة الحال، الى اكتساب لغتهم الاصلية بطريقة غير سليمة من ناحية التركيب اللغوي. اذ ستكون صياغتهم اللغوية ضعيفة، الى جانب التغيير الذي يطرأ على بعض الحروف ؛ وهذا يرجع كله الى غياب الاتصال باهل اللغة، الى جانب ان عملية اكتسابها لا تتم بطريقة مؤسسية.

د - كذلك، فان بقاء هذه الكفاءات في بلاد المهجر مدة طويلة، سيفضي الحال بالاطفال الى استدخال القيم الثقافية لمجتمع المهجر، وهي بطبيعة الحال، تتناقض كلية مع الثقافة الاصلية للأبوين.

وهنا تكمن الخطورة ! اذ سيفقد الاطفال صوابهم في تمييز قواعد الحلال والحرام من الناحية الدينية، او ما هو مباح وما هو محظور من الناحية الاجتماعية. وستزداد الامور تعقيداً، حينما يتقدم الاطفال في السن ؛ وذلك لاكتسابهم التوجهات القيمية السائدة في مجتمع المهجر. وهذا سيؤدي بطبيعة الحال، الى استصدار استجابات تتناسب وطبيعة هذه التوجهات، انطلاقاً من مقولة، ان التوجهات القيمية توجه السلوك وجهة معينة،وهذا معناه، ان استجابات الاطفال، ستكون على غرار استجابات اقرانهم في مجتمع المهجر، من حيث الحكم على الاشياء ومحاكاة العلاقات الاجتماعية السائدة، وكذلك من حيث تكوين تصور عن الاحداث الاجتماعية من منظور ثقافة المهجر، الى جانب مراعاة عملية التفاعل مع الافراد، استناداً الى القواعد السائدة هناك. وبذلك، فان بقاء الكفاءات العلمية في بلاد المهجر مدة طويلة، سيفضي الحال بالاطفال الى استدخال قيم الثقافة الاصلية بشكل ضعيف، بالمقابل الاهتمام باستدخال القيم الثقافية لمجتمع المهجر بصورة لافتة للانتباه. ولقد استثارت مسألة محاكاة الاطفال لقيم ثقافة المهجر، قلق الآباء هناك ؛

بسبب صعوبة ضبط سلوك الاطفال عندما يصلون الى مرحلة المراهقة، ولاسيما الاناث على وجه التحديد، اذ ستجاري العلاقات الحادثة من حيث تكوين الصداقات مع الذكور او محاكاة الانماط السلوكية السائدة لدى الاناث. وربما تتطور الامور الى ما لا تحمد عقباها في حال الاختلاء باحدهم، ولاسيما ان الاجواء هناك مهيأة للإتيان بهذا النوع من السلوك.لذا، نقول، ان القلة من الآباء الذي استثار قلقهم حول محاكاة الاطفال لقيم ثقافة المهجر، سارعت بالعودة الى الوطن، تجنباً للمشكلات المترتبة على التحلل الاجتماعي الحادث هناك.

هـ – ومن المشكلات المترتبة على البقاء في المهجر، اكتساب ثقافة تتصف بالاستهلاك المفرط. وقد ساهمت عوامل متعددة في اكتساب هذه الثقافة نذكر منها: ارتفاع الدخل الذي يتقاضاه المهاجر، وهو من العوامل المشجعة على استهلاك المواد والسلع الفاخرة. كذلك، فان محاكاة الافراد في بلاد المهجر على اقتناء السلع والبضائع، ساهم في اكتساب ثقافة الاستهلاك، فضلاً عن هذا وذاك، ان الفضائيات التي يتعرض لها المهاجرون هناك، ادت الى تنمية انماط استهلاكية لم تكن معروفة من قبل، وهذا بدوره ادى الى زيادة الطلب على بعض السلع والبضائع. وبالمحصلة النهائية، ان هؤلاء المهاجرين اصبحوا منشغلين باشباع حاجاتهم من هذه السلع والبضائع. اذ كلما اشبعوا حاجة من سلعة ما، وجدوا انفسهم امام سلع اخرى لم يشبعوا حاجاتهم منها ؛ بسبب ان الفضائيات ترسل اليهم على مدار مدة البث صوراً تشتمل على سلع استهلاكية تتمتع بقدر كبير من الجاذبية، الى جانب انها تمثل اخر صيحات المودة، ولاسيما في مجال الملابس وادوت الزينة[20] وهي في الوقت نفسه، متنوعة تشبع حاجات الجنسين، من مختلف الفئات العمرية.

و – ومن المشكلات العلمية المترتبة على هجرة الكفاءات العلمية من اساتذة الجامعة، تكليف الاساتذة الجدد بمهمات تدريسية مقاربة لاولئك الذين يتمتعون بخبرة تدريسية وبحثية طويلة. والحقيقة، ان عملية التكليف هذه لم تكن موفقة ؛ بسبب ان الاساتذة الجدد بحاجة الى التأهيل التربوي، الذي يشتمل على اساليب التعامل مع الطلبة وادارة الحوار والمناقشة داخل القاعة الدراسية. كذلك، فان هؤلاء الاساتذة، لم تكن لديهم خبرة كافية في طرائق التدريس، فضلاً عن ان

(20) محمود شمال حسن. نحن والبث الفضائي: دراسة الاثار النفسية والاجتماعية المحتملة للبث الوافد من الفضاء في المجتمع العربي. دراسات اجتماعية. السنة 1، العدد 2 (حزيران –يونيو، 1999)، ص95.
محمود شمال حسن. مسألة التضليل في الخطاب التلفزيوني. الاذاعات العربية. العدد 1 (2001)، ص16.

مستواهم العلمي في حقل اختصاصهم لم يكن بالمستوى المطلوب، مما ترتبت على ذلك، آثار سلبية، انعكست على العملية التربوية برمتها، وهنا نشير الى اهم هذه الآثار :

تشير الملاحظات اليومية، ان القاعات الدراسية، اخذت تشهد فوضى، لم تألفها من قبل ؛ وهذا يعود الى حداثة الموقف على هؤلاء الاساتذة الذين اخذوا يواجهون صعوبة في السيطرة على القاعة الدراسية، مما ادى الى اشاعة الارتباك وضياع وقت المحاضرة في اسكات الطلبة. كذلك، فان عدم إلمام الاساتذة الجدد باساليب التعامل مع الطلبة، ادى الى احلال الطريقة التسلطية، محل الطريقة المرنة، مما ولد نفوراً لدى الطلبة، ومن ثم الشعور بالاستياء والتذمر، وهذا افضى بطبيعة الحال الى اشاعة اجواء مضطربة داخل القاعات الدراسية. ولعل الأهم من ذلك، ان حالة الاستياء والتذمر التي شاعت بين الطلبة، جعلت الكثير منهم، ينصرف عن متابعة المحاضرة. كما ان حداثة الخبرة العلمية لهؤلاء الأساتذة، انعكست على المستوى العلمي للطلبة، اذ بدأنا نشهد في الآونة الاخيرة، ان الحصيلة المعرفية للطلبة، انخفضت بشكل ملحوظ ؛ وذلك يعود الى ان هؤلاء الاساتذة، لم يتمكنوا من استثارة دافعية الطلبة في طلب المزيد من المعرفة. كما ان هؤلاء الاساتذة، اخذوا يقدمون للطلبة المحاضرات بصيغة مختصرة دون الالمام بالتفاصيل، وبالمحصلة النهائية، فان هذا الحال، مكّن الطلبة من الإلمام البسيط بالظواهر دون معرفة التفاصيل التي تشتمل عليها. الى جانب، ان المفردات المقررة للمادة العلمية، لم تنجز بكاملها، وانها اخذت تخضع للاجتهادات الشخصية من جانب هؤلاء المستجدين.

ان بعض الاساتذة القدامى، عزف عن التدريس في الدراسات الاولية واقتصر جهده على التدريس في الدراسات العليا ؛ بسبب شعورهم بالارهاق، جراء التدريس، وهذا ادى الى عزوفهم عن متابعة مجريات الامور داخل القسم العلمي، وهو الامر الذي جعل التقاليد العلمية في الاقسام العلمية، تشهد انحساراً ملحوظاً.

ومن الآثار السلبية المترتبة على تكليف الأساتذة الجدد بمهمات تدريسية، ان التقاليد العلمية المتعارف عليها، قد ضعفت بشكل واضح ؛ ولعل السبب يرجع هنا الى ان عدد الاساتذة الجدد، بدأ يتغلب على عدد الاساتذة القدامى وان هؤلاء القدامى، اخذت أعدادهم بالتناقص بمرور الوقت، حتى وصل عددهم في القسم العلمي بين (3-4) والبقية الباقية من الجدد. كما ان بعض الاساتذة القدامى، عزف عن التدريس في الدراسات الاولية واقتصر جهده على التدريس في الدراسات العليا ؛ بسبب شعورهم بالارهاق، جراء

التدريس، وهذا ادى الى عزوفهم عن متابعة مجريات الامور داخل القسم العلمي، وهو الامر الذي جعل التقاليد العلمية في الاقسام العلمية، تشهد انحساراً ملحوظاً.

2- شعور مبكر بالشيخوخة :

لقد ولدت اوضاع القهر السياسي، الى جانب الاوضاع الاقتصادية البالغة السوء التي عمت المجتمع العراقي تدهوراً في الصحة النفسية لدى بعض الافراد، ولاسيما المثقفون منهم على وجه التحديد. اذ تعرض هؤلاء الى بعض الاضطرابات النفسية والسايكوسوماتية، تلك الاضطرابات التي اخذت تظهر على شكل مظاهر سلوكية من قبيل: القلق والاكتئاب والحزن والانطواء والعزلة وآلام في المعدة والاثني عشر واضطراب وظيفة القلب وضيق في الصدر وآلام في الامعاء والقولون وانسداد الشرايين، وكثير من هذا القبيل. وهو الامر الذي يعني، ان هذه الفئة اخذت تتعرض الى الاحتراق من الداخل، او بلغة علم النفس، انها تعرضت الى الاحتراق النفسي Burnout واستمرار الاحتراق هذا، سيؤدي الى استنزاف طاقة نفسية كبيرة، ومن ثم الوصول الى حالة من الإعياء او الإنهاك. لذا، فإن هذه النخبة التي يشكّل فيها الشباب نسبة معتدلة، بدت عليها علامات الشيخوخة مبكراً، ولقد عانت من ضغوط نفسية شديدة[21]، يفوق درجة احتمالها.

وكان من الطبيعي، ان ينجم عن هذه الضغوط الشديدة، وفيات مفاجئة، دون ان تظهر عليها أعراض مرضية. اذ تشير البيانات في هذا الصدد، ان نسبة الوفيات بين صفوف الشباب، قبل بلوغ سن الأربعين، بلغت (17,9%)[22]. وإذا شئنا التفصيل في هذه البيانات على مستوى الجنسين، نجد ان هذه النسبة، قد بلغت (20,9%) بين الذكور و(14,6%) بين الإناث[23]. وإذا علمنا ان هذه الوفيات تركزت في صفوف النخبة المثقفة، أدركنا شدة الضغوط التي تعرضت لها هذه الفئة. كما ترتب على التعرض لهذه الضغوط إقدامُ بعض هؤلاء الشباب على الانتحار ؛ بسبب فقدان الأمل في تحسين احوالهم الحياتية ؛ وللتخلص كذلك من الاحباطات المتكررة التي غدت من الخصائص الشخصية التي تميّزهم عن غيرهم.

3- صعوبة إشباع الحاجات الأساسية :

إنَّ الضائقة الاقتصادية الناشئة عن الحصار الاقتصادي، ادت الى صعوبة

(21) محمود شمال حسن. النسق القيمي وخطاب الازمة الاقتصادية. المستقبل العربي، السنة 26، العدد 298(كانون الاول – ديسمبر، 2003)، ص44.

(22) هبة الليثي. الفقر وطرق قياسه في منطقة الاسكوا. (نيويورك: الامم المتحدة، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي اسيا – الاسكوا، 2003)، ص45.

(23) المصدر نفسه، ص48.

إشباع حاجات النخبة المثقفة، ولاسيما حاجاتهم الاساسية. ولعل السؤال الذي نثيره هنا، ما نوع هذه الحاجات؟

وللإجابة عن هذا السؤال، نجد من الضروري، ان نستعرض نظرية الترتيب الهرمي للحاجات، التي تعود الى المنظّر الأمريكي ابراهام ماسلو ؛ ولعل اختيارنا لهذه النظرية، دون سواها، من نظريات الحاجات، يرجع الى ان الحاجات التي تشتمل عليها هذه النظرية، هي حاجات انسانية، ولَمَّا كانت كذلك، فإن حاجات الأفراد في اي مجتمع بشري، تتطابق مع الحاجات التي تشتمل عليها النظرية.

إن نظرية الترتيب الهرمي للحاجات، تشتمل على نوعين من الحاجات، يطلق على النوع الأول بالحاجات الدنيا، فيما يطلق على النوع الثاني بالحاجات العليا. والحاجات الدنيا في هذه النظرية، هي حاجات البقاء والأمان وتشتمل على الحاجات الفيسولوجية والأمن والسلامة.

اما الحاجات العليا، فهي تلك الحاجات المتمثلة بالحب والانتماء والاحترام والتقدير وتحقيق الذات.

ومن الطبيعي، ان للمجتمع دوراً في اشباع حاجات الأفراد، فلقد وجد ان المجتمعات النامية تهتمُّ عادة باشباع الحاجات الدنيا[24].و وفقاً لهذا المنطق، فإن المجتمعات النامية تركز على اشباع الحاجات الفسيولوجية والأمان والسلامة اكثر من تركيزها على الحاجات العليا.في حين، أن الأمر جدّ مختلف مع المجتمعات المتقدمة التي حققت مستويات عالية في التنمية البشرية، اذ ان اشباع الحاجات الدنيا، اصبح من الامور المفروغ منها. فلقد قطعت شوطاً كبيراً، ليس في اشباع الحاجات الدنيا، وانما في اشباع الحاجات العليا. واذا نحن بحثنا في المتحقق، مما اشبع من الحاجات الدنيا في المجتمع العراقي، بوصفه مجتمعاً نامياً، نجد ان ثمة معاناة من صعوبة اشباع هذه الحاجات. وفي هذا السياق، نشير الى ان احدى الدراسات التي أُجريت على عدد من الفئات الاجتماعية في المجتمع، ومنها النخبة المثقفة، قد وظفت الحاجات التي تنطوي عليها النظرية. ولقد كشفت نتائج الدراسة بين ما كشفت، ان الضائقة الاقتصادية، قد اثّرت بشكل واضح في عدم اشباع الحاجات ؛ ولأجل معرفة الحاجات غير المشبعة، اشارت النتائج[25] ان هذه الحاجات اتخذت الترتيب الآتي :

(24) D.M.Smith. Human Geography.(London: Edward Arnold,1977), P.29.

(25) محمود شمال حسن. مستوى اشباع الحاجات وفقاً لنظرية ماسلو. مجلة آداب المستنصرية، العدد 35(2000)، ص205.

أ - الحاجة الى الأمن والسلامة.

ب - الحاجة الى التقدير والاحترام.

ج - الحاجة الى الحب والانتماء.

د - الحاجات الفسيولوجية.

هـ - الحاجة الى تحقيق الذات.

واضح، ان الحاجات الدنيا، هي الحاجات غير المشبعة،وقد كانت في مقدمة هذه الحاجات، الحاجة الى الامن، وهذا يعكس القلق المتنامي بين صفوف الافراد، جراء الاحوال المعيشية الآخذة بالانحدار، وما سيؤول اليه استمرار هذه الأحوال من تبعات.

وهنا نصل الى مسألة لا بدَّ من الاشارة اليها وهي، ان استمرار الضائقة الاقتصادية، الى جانب استبداد السلطة وتشديد الرقابة البوليسية على النتاج الفكري للنخبة المثقفة، ادى الى صعوبة اشباع الكثير من حاجاتها الاساسية، وبالتبعية، فان ذلك ادى الى عدد من المشكلات النفسية والاجتماعية، على أن تفاقم حدة هذه المشكلات، سيؤدي ولا رييب إلى الهجرة.

4 - الحنين الى الماضي بوصفه بعداً زمنياً مفضلاً :

لقد شاع بين افراد النخبة المثقفة نكوصٌ الى الماضي والتغني بامجاده وايامه، بعد ان سئموا من الحاضر الذي لم يحمل لهم بشائر الخلاص من الخيبات المؤلمة المتراكمة. وان ثمة شواهد واقعية، تشير الى ان افراد هذه النخبة في نكوص دائم الى الماضي، ذلك، ان احاديثهم في المجالس الاجتماعية وفي المنتديات الثقافية، وحتى في الأماكن التي يحدث فيها تجمع جماعي، تسرد وقائع وأحداثاً حدثت في زمن مضى، ثم بعد ذلك تنتهي هذه الوقائع الى إجراء مقارنات مع ما يحدث من وقائع في الحاضر، وتنتهي مثل هذه المقارنات من ثم الى تفضيل واضح للماضي ورفض الحاضر. على ان النكوص الى الماضي عادة ما ترافقه عملية تزيين لوقائعه ؛ وذلك بإخفاء عيوبه والمبالغة في حسناته[26]. وبذلك يتحول الماضي الى عالم طوباوي، يجد فيه الافراد اشباعاً لحاجاتهم النفسية.

(26) مصطفى حجازي. التخلف الاجتماعي: مدخل الى سايكولوجية الانسان المقهور، ط8. (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2001)، ص109.

وما نريد قوله هنا: إن الماضي، أصبح لدى الغالبية هو السعادة والهناء[27]، او الذكريات السارة واصبح الحاضر هو الشقاء والتعاسة. ولعل العواقب المترتبة على ذلك، هو غياب التطلع الى المستقبل، وغياب التطلع إلى المستقبل يعني بين ما يعني، قطع الاتصال مع العالم وعدم القدرة على مجاراة احداثه، وذلك يعني جملة، ان تقادم الزمن، سيزيدنا خسائر تلو الخسائر ؛ لان الزمن القادم، لن يتيح للانسان التفكير ببدائل العيش ؛ ذلك ان هذه البدائل، قد نظمت بطريقة معدة مسبقاً. وهو الامر الذي يعني صعوبة إحداث تغييرات فيها، هذا من جانب، وصعوبة فهم التغييرات الحاصلة في النظام العالمي من جانب آخر. لذا، اصبح لزاماً، ان تعيش النخبة المثقفة الحاضر، ليتسنى لها، فهم أحداثه ووقائعه، ومن ثم التطلع الى المستقبل، بالرغم من الغموض الذي يكتنف بعض جوانبه، والا، فان النكوص المستمر الى الماضي، وعدم الاندماج في الحاضر، سيكون حال النخبة المثقفة، حال القبيلة البدائية، البعيدة كل البعد، عما يجري في الحضارة الانسانية من مستجدات.

(27) المصدر نفسه، ص109.

أن الازمات التي توالت على المجتمع العراقي، أشاعت نوعاً من الاغتراب، يطلق عليه في ادبيات علم النفس الاجتماعي، الاغتراب الاجتماعي.

5- الإغتراب عن المجتمع :

تشير الوقائع الميدانية، أن الازمات التي توالت على المجتمع العراقي، أشاعت نوعاً من الاغتراب، يطلق عليه في ادبيات علم النفس الاجتماعي، الاغتراب الاجتماعي.

وما يهمنا هنا، ان هذا النوع من الاغتراب، اخذ يشيع بين صفوف النخبة المثقفة بدرجة ملحوظة. وتثبيتاً لصحة الرأي الذي ذهبنا اليه، نشير، ان هذه النخبة، اخذ افرادها يكثرون بشكل ملحوظ في المقاهي ؛ ليس بسبب تحول بعض المقاهي الى منتديات للحوار، وانما اصبحت مكاناً يقضي فيه هؤلاء ساعات النهار ؛ بسبب البطالة التي اخذوا يعانون منها بعد حل بعض الوزارات والمؤسسات الإعلامية. وكان من الطبيعي، والحال هذه، ان يلجأ هؤلاء الى المقاهي ؛ بقصد التخلص من حالة الملل والسأم، وفي الوقت نفسه، التخلص من ساعات النهار الطويلة.

ففي واحدة من المقاهي المنتشرة على الأرصفة في مدينة بغداد، كَوَّنَ احد الصحفيين، ملتقى ثقافياً، أطلق عليه ((فقراء بلا حدود)) إذ ضمَّ ثمانين عضواً من اولئك الذين يرتادون المقهى[28] على وجه التحديد. وبذلك،

(28) جلال حسن. مقاهي الرصيف. صحيفة المدى. السنة 1، العدد 123.

تحوّلت المقاهي من أماكن للتسلية ومنتديات للحوار، كما هو معروف عنها في المجتمع العراقي الى أماكن يهرب من خلالها الأفراد من واقع اجتماعي يعاني من ازمات كبيرة.

ولعلَّ الأزمة الاقتصادية الخانقة التي يمرُّ بها المجتمع العراقي، عمدت في واقع الامر الى تكوين وضعية اجتماعية مغتربة، لإن صحَّ التعبير ؛ ذلك، ان تدهور الأحوال الاقتصادية وعدم تيسّر السبل الكفيلة للتخفيف منها، جعلت أفراد النخبة المثقفة يشعرون بالضآلة واللا جدوى، ومن ثم فقدوا معنى وجودهم.

ان مما تجب الإشارة اليه في هذا الصدد، ان بعض افراد هذه النخبة، ممن يعانون من الاغتراب الاجتماعي، أخذوا يهملون انفسهم ولا يهتمون بمظهرهم الشخصي؛ بسبب انهم انشغلوا طول الوقت بعالمهم اليوتوبي الذي اصطنعوه لأنفسهم. اذ تراهم في حالة انشغال بتنظيم العلاقات السائدة فيه والشخصيات المناسبة التي يكون لها القدرة على التحرك في فضاء هذا العالم. وبعد الانتهاء من ترتيب عالمهم اليوتوبي هذا، يبدؤون بمحاكاة تلك الشخصيات التي أُعدت لها أدوار معينة. وبذلك، لا يكترث هؤلاء بوجود الآخرين من حولهم، بالرغم من أنهم يحيطون بهم من كل تُجاه، بيد ان انشغالهم بعالمهم هذا وتوالي الأحداث فيه، جعلهم غير آبهين لما يجري حولهم.

6- الإصابة بالإضطرابات النفسية :

بادئ ذي بدء، ان الاضطرابات النفسية؛ لكي تحدث، لا بدَّ من توفر شرطين رئيسين، هما: الاستعداد للإصابة بالاضطرابت النفسية والتعرض لأوضاع اجتماعية او اقتصادية او سياسية ضاغطة او بالغة السوء، تفوق قدرة الفرد على التحمل. واستناداً الى الصحة النفسية ان كل الأفراد دون استثناء لديهم الاستعداد للإصابة بالاضطرابات النفسية، بيدَ ان الاستعداد للإصابة، يظل كامناً لحين تعرض الفرد الى ضغوط شديدة تفوق قدرته على التحمل، وعند ذاك، يتعرض الى الإصابة بأحد هذه الاضطرابات او ببعضها. وعلى ذلك، نقول: إن الأفراد في اي مجتمع بشري، هم عرضة للإصابة بهذه الاضطرابات، شريطةَ توفُّر الشرط الثاني.

والجدير بالإشارة، أن الأوضاع السياسية والاقتصادية البالغة القسوة التي تعرض لها المجتمع العراقي إبان النظام السابق او تلك التي يتعرض لها في الوقت الحاضر، قد عرّضت نسبة من أفراده الى الإصابة بالاضطرابات

النفسية، وهي لَمَّا تزلْ بعدُ، تُعرّضُ نسبة أخرى للإصابة بهذه الإضطرابات[29].

(29) محمود شمال حسن. العسر الاقتصادي والاضطرابات النفسية في المجتمع العراقي. النبأ (بغداد)، السنة 11، العدد 79 (تشرين الثاني، 2005)، ص36.

والفكرة التي نريد ان نصل اليها، هي أن هذه الأوضاع، أدَّت الى إصابة نسبة لا يستهان بها من أفراد النخبة المثقفة بالاضطرابات النفسية. وتلك الظاهرة نقيض المأثورات المتداولة بين الناس، من ان المثقفين، هم اقدر من غيرهم على مواجهة الشدائد والمحن، وهم أقدر كذلك، على انتقاء الاساليب المناسبة للتعامل معها. اذ تشير الوقائع الميدانية، أن النخبة المثقفة أخذت تشعر بالضآلة واللا جدوى من وجودها في مجتمع يسجل يومياً تراجعاً كبيراً في مجالات الحياة المختلفة. وانه لم يعدْ ثمةَ أملٌ في السيطرة على هذا التراجع؛ لأنها لا تمتلك التحكم في مجريات الأمور، فقد أخذت تشعر بالقلق الوجودي، كما يسميه الوجوديون، ذلك القلق الذي ينشأ جراء فقدان معنى الوجود، بمعنى، ان النخبة المثقفة بما تتمتع به من حصيلة معرفية وثقافية، وجدت نفسها، أمام حقيقة لا مفرَّ منها، ألا وهي، ان وجودها البشري لا قيمة له وليس له معنى، ولأنها فقدت المعنى في وجودها، وفي الحياة عموماً، أصبحت تعاني من سوء التوافق. وكانت النتيجة المترتبة على ذلك، شعورها بالغربة عن ذاتها، ولأنها لم تعدّ تشعر بالانسجام مع ذاتها، الى جانب هذا وذاك، اصبحت علاقاتها الاجتماعية مضطربة، وانها غير قادرة على الإيفاء بالتزاماتها الشخصية والاجتماعية على وجه التحديد.

إنَّ الوضع المتأزم الذي وصلت إليه النخبة المثقفة، ادى الى عزوف بعض أفرادها عن الكتابة؛ وذلك لتجنب المواجهة مع السلطة، تلك المواجهة التي ألقت بهم في المعتقل، وعندما خرجوا منه، كانوا يعانون من اضطرابات سايكوسوماتية، كارتفاع ضغط الدم او السكر او اضطراب في وظيفة القلب او انسداد في الشرايين او قرحة المعدة او الاثني عشري، وغير ذلك من الاضطرابات التي تسبب بها المكوث في المعتقل، وعلى حد تعبير أحدهم ((ان المعتقل كفيل بإحداث الثقب المطلوب في جسد الفرد، لينشغل به طول حياته، وهذا سيجعله يتحاشى المواجهة مع السلطة)).

وآخرون من أفراد هذه النخبة، شعروا بالضياع والمرارة وخيبة الأمل الى درجة، أنهم أقدموا على إحراق كتبهم وأوراقهم، وغيّبوا وعيهم الى أجل غير مسمى، ثم هاموا على وجوههم في الطرقات، غير عابئين ولا مكترثين، انهم كانوا في يوم ما، باحثين، يترددون على المكتبة على الدوام.

من ذلك، نخلص الى نتيجة، مفادها: أن الأوضاع السياسية والاقتصادية، سواء كانت في عهد النظام السابق أم في العهد السياسي الجديد، ادت الى إصابة نسبة لا يستهان بها من أفراد النخبة المثقفة بالاضطرابات النفسية، وهذا يؤشر أن النخبة المثقفة، لَمَّا تزلْ بعدُ، تتعرض الى ضغوط شديدة تفوق قدرتها على التحمل.

7- شيوع ظاهرة وعاظ السلاطين بين صفوف النخبة المثقفة :

لعلَّ من بين الانتقادات التي توجه الى النخبة المثقفة العراقية، أنها وضعت خبراتها المعرفية في خدمة السلطة، ولم تأبه بمشكلات الناس، او حتى تشغل نفسها بالحلول المناسبة لهذه المشكلات، بل ان همها الرئيس انصبَّ على إرضاء السلطة، ومن ثم التمتع بعطاياها؛ لبلوغ الحياة المرفهة التي ترغب بها او لتأمين مصادر دخلها. ولقد أخذت توجه هذه الانتقادات عبر قنوات الاتصال الجمعية او في المنتديات الثقافية او في المؤتمرات والندوات العلمية.

واللافت للانتباه، أن بعض الانتقادات، كان يوجهها أفراد من النخبة المثقفة وكأنهم ينتقدون أنفسهم بانفسهم، والسؤال الذي نطرحه هنا، هل النخبة المثقفة، عمدت الى خدمة السلطة ؟

وللإجابة نقول: إن أفراد النخبة المثقفة العراقية، لم يعمدوا جميعهم الى خدمة السلطة، وانما عمد بعضهم الى تقديم خدماته للسلطة، وبمرور الوقت، أصبحوا من وعاظ السلاطين، إنْ صحَّ التعبير. والحقيقة التي لا بدَّ من ذكرها هنا، أن مسألة خدمة النخبة المثقفة للسلطة، لم تكن في حقيقة الأمر، شأناً عراقياً، بل إنها مسألة شائعة الحدوث في المجتمعات البشرية، ولكن بدرجات متفاوتة. وهنا يوجه اللوم الى النخبة المثقفة العراقية على وجه التحديد؛ بسبب ان المجتمع العراقي، قد تعرض الى أزمات متلاحقة، وكان ينبغي على النخبة المثقفة، ان تكون على الحياد، ان لم تكن في جهة المعارضة. بيدَ ان واقع الحال، يشير ان النخبة المثقفة، وضعت خبراتها المعرفية والثقافية في خدمة السلطة؛ لتمكينها من إدارة الصراع، ومن ثم تمكينها من الاساءة الى الناس؛ وذلك بتنفيذ مشاريع تسيء اولاً الى المجتمع، والى البيئة ثانياً. وهنا يستشهد المنتقدون للنخبة المثقفة بمشروع ما سمي في وقته بـ((نهر صدام)). اذ ساهم في هذا المشروع، بعضُ أفراد

النخبة المثقفة، ولولا دعم النخبة المثقفة لهذا المشروع، فمن الصعوبة بمكان تنفيذه، في المدة المقررة. والحقيقة، ان هذا المشروع، يعدُّ مثالاً واحداً من امثلة متعددة، يوضح استجابة النخبة المثقفة لمقترحات السلطة. كذلك،لوحظ، ان بعض أفراد هذه النخبة،وليس كلهم، هم الذين يطرقون أبواب السلطة، يعرضون من خلالها خدماتهم؛ بهدف الحصول على الجاه والنفوذ والتمتع بالحياة المرفهة، تلك الحياة التي تشتمل على المنزل الفخم في حي سكني راقٍ والسيارة الفخمة، والسفر بين البلدان واقتناء المواد الغالية الثمن والشهرة بين الناس؛ وذلك لإشباع حاجاتهم الاستعراضية.

ومما يلاحظ على النخبة المثقفة العراقية أن خدماتها لم تقتصر على السلطة في الداخل فحسب، وانما امتدت الى الخارج. اذ اتبعت طرقاً متعددة في تقديم خدماتها الى الجهات المستفيدة هناك، ففي منطقة الخليج، عمل بعض أفراد هذه النخبة في مراكز بحثية وثقافية، تكاد تكون هامشية وآخرون عملوا في القنوات الفضائية، بصفة ضيف، يقدم اجابات محددة عن أسئلة معينة، او العمل بصفة مقدم ومُعِدّ لبرامج معينة، بالرغم من ان مجال تخصصه لا يمُّت بصلة الى الإعلام.

ومع ذلك، نقول: إن النخبة المثقفة التي ذهبت الى الخليج؛ لغرض العمل، أجرت مسحاً ميدانياً لاتجاهات الجمهور هناك، فوجدت ان هذه الاتجاهات، تميل نحو الإرشاد الديني والأسري والتربوي. ولقد استخلصت من مسحها هذا ان ثمة مادة اتصالية، يمكن توظيفها في المجال الديني والأسري والتربوي، على ان تعرض بطريقة مبسطة، مسندة ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وامثلة مستقاة من الواقع الاجتماعي، في محاولة لجعل البرنامج مقبولاً من الجمهور. ولعلَّ الامر نفسه، ينطبق على المراكز البحثية والثقافية، فلقد أفادت الملاحظات الميدانية أن أفراد هذه النخبة، ساهموا في تأسيس هذه المراكز او تطويرها، بطريقة تنسجم مع ايديولوجية الممولين لها. والمهم، كما يتردد على ألْسِنة هؤلاءِ الأفراد، ديمومة هذه المؤسسات والمبالغة في الخدمات التي تقدمها الى المجتمع، في المقابل، إطالة مدة المكوث فيها، قدر المستطاع؛ بهدف ديمومة الأجور المتأتية منها.

وفي ليبيا التي استقبلت أعداداً كبيرة من الكفاءات العراقية الحاملة لشهادتي الماجستير والدكتوراة، اقتصر عملها على التدريس في الجامعة فحسب، وقد

اصبح هذا العمل بمرور الوقت غير مجد؛ بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة هناك. ومما زاد من تكاليف المعيشة هذه، ان اولئك الذين وصلوا الى ليبيا، كانت ترافقهم أسرهم، وهذا يقتضي بطبيعة الحال، مزيداً من الانفاق، مما يؤثر بالمحصلة النهائية في العوائد الشهرية المستحصلة؛ وبهدف تحسين الدخل، لجأت بعض الكفاءات الى العمل في مركز دراسات الكتاب الأخضر. وقد انجزت عدداً من الدراسات التي اثبتت فيها صواب ما جاء في الكتاب الأخضر، ولعلَّ المفارقة الغريبة أن ثمة تصريحات صادرة من هؤلاء الذين عملوا في المركز، تفيد ان الدراسات التي أُجريت لحساب المركز، كانت تضليلاً او تزييفاً لحقيقة الامر، وان ما ورد في الكتاب، كما وردت في أحاديثهم هي مغالطات ومقولات لا تستند الى المنطق العلمي. والحقيقة، ان ذلك، يذكّرنا بموقف هلال الصابئ، حينما طلب منه عضد الدولة البويهي، ان يؤلف كتاباً في تاريخ بني بويه. ولعلَّ الحكمة التي نستخلصها من موقف الصابئ هذا، انه سئل عن طبيعة هذا الكتاب، فأجاب قائلاً: ((أباطيل ننمقها وأكاذيب نلفقها))[30].وقد يفسر هذا الموقف على اساس، ان الوفرة، تتيح المجال للأفراد، انتقاء الفرصة المناسبة من بين الفرص المتعددة؛ ولان فرص العمل بالنسبة للكفاءات، محدودة، فان القبول في فرصة غير مناسبة، افضل من الحرمان منها، على امل ان تتاح فرصة اخرى مناسبة في وقت لاحق، وعند ذاك، يتمُّ التخلي عن الفرصة غير المناسبة.

(30) شاكر مصطفى. العطاء الفكري – الثقافي للمثقف العربي: فقر العطاء وخيانة الكهان. في: انيس صايغ (معد). المثقف العربي: همومه وعطاؤه، ط2. (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2001)، ص179–180.

8- تدني المكانتين الاجتماعية والاقتصادية لأفراد النخبة المثقفة :

تشير الشواهد الواقعية، ان افراد النخبة المثقفة العراقية، أخذوا يعانون من تدني المكانتين الاجتماعية والاقتصادية، منذ تسعينيات القرن العشرين، وحتى هذه اللحظة، وهذا يعني بطبيعة الحال، ان المجتمع، اخذ يشهد نوعاً من التغير الاجتماعي، يطلق عليه التغير المنفلت Non-systematic change وعادة ما يشيع هذا النوع من التغير في المجتمعات التي تعاني من ازمات.اذ تتقرر المكانة الاجتماعية للفرد بموجب مؤشرات لا علاقة لها بشرط الكفاءة او الجهد المبذول او التحصيل العلمي؛ بل ان مكانة الفرد تتقرر استناداً الى مؤشر واحد فحسب، كأن يكون مورده الاقتصادي او علاقته بمتخذ القرار او كونه محسوباً عليه او موالياً له. اما شرط الكفاءة او الجهد المبذول او التحصيل العلمي، فلا يُراعّى هنا في تقرير المكانة الاجتماعية[31].

(31) محمود شمال حسن. المجتمع المنجز: دراسة لتهيئة المجتمع العربي للانجاز. (القاهرة: دار الآفاق العربية، 2006)، ص115.

ولعلَّ الامر نفسه، ينطبق على المكانة الاقتصادية. فالمعروف أن الأجور التي

ان افراد النخبة المثقفة العراقية، أخذوا يعانون من تدني المكانتين الاجتماعية والاقتصادية، منذ تسعينيات القرن العشرين، وحتى هذه اللحظة.

يتقاضاها الأفراد، تتقرر، طبقاً للجهد المبذول او الكفاءة، بيدَ ان واقع الأمر أن هذين المؤشرين لا يؤخذ بهما، مما ادى والحال هذه، الى اضطراب التراتب الاجتماعي، وهذا يعني صراحة، غياب واضح للمعايير التي تحكم عملية التراتب داخل المجتمع. ولتوضيح فكرة التراتب الاجتماعي المضطرب، نقول: إن الأستاذ الجامعي، يحتلُّ الترتيب (4) في قائمة المهن من حيث المكانة الاجتماعية. في حين، يحتل الترتيب (25) في القائمة نفسها من حيث المكانة الاقتصادية.

وإذا عقدنا مقارنة بين الأستاذ الجامعي ومهنة أخرى أقلَّ مكانة، فسنفاجأ في الحال من النتيجة التي تسفر عنها المقارنة، وهذا يدل دلالة قاطعة، على ان التراتب الاجتماعي، قد تعرض الى الاضطراب، بدليل، ان المطرب وهو اقل مكانة في قائمة المهن، احتل الترتيب (7) في المكانة الاقتصادية، في حين، احتل الترتيب (74) في المكانة الاجتماعية[32].

ومن هنا، يبدو من غير المنطقي، ان يتغلب الثاني على الاول بمكانته الاقتصادية، بعد ان تراجعت مكانة الأول الاجتماعية التي أصبحت بدورها لا تُؤهله، لأن يكون من أهل الجاه والحظوة.

وهنا نصل الى مسألة لا بدَّ من الاشارة اليها وهي أن تدني المكانتين الاجتماعية والاقتصادية لفئات النخبة المثقفة، سيؤدي الى خفض الإبداع؛ بسبب اعتقاد هذه النخبة ان الارتقاء بالإبداع الى مستويات متقدمة، لن يغيّر من واقع الحال شيئاً؛ لأن النتيجة مقرّرة مسبقاً، وهي عدم تقدير الجهد المبذول. وفي حال، وصول النخبة المثقفة الى مرحلة الشعور باللا جدوى، فان المتوقع ان يشهد المشهد الثقافي انحساراً، وبالتبعية، فان المراكز البحثية والمؤسسات العلمية، كالجامعات والمعاهد، سيكون عملها نمطياً، اي يفتقر الى الجدة والأصالة، وهذا سيُفضي بالنتيجة النهائية الى الحصول على مخرجات متدنية النوعية.

(32) عبد الجبار توفيق البياتي وبهاء الدين عبد الله. المنزلة الاجتماعية للمهن من وجهة نظر معلمي ومعلمات المدارس في بغداد. (بغداد: جامعة بغداد، مركز البحوث التربوية والنفسية، 1974)، ص13–16.
قاسم حسين صالح.المكانتان الاجتماعية والاقتصادية للمهن في المجتمع العراقي من وجهة نظر طلبة الجامعة.الآداب (بغداد)، العدد 42 (1997)، ص187–191.